

الهوية والاختلاف في فلسفة بول ريكور

Identity and difference in Paul Ricoeur's philosophy

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة – الجزائر	فلسفة	واحد مراد* OUAHEK MOURAD m.ouahek@hotmail.com
DOI: 10.46315/ 1714-011-002-004		

الإرسال: 2021/01/01 القبول: 2021/04/11 النشر: 2022/04/16

ملخص:

لقد كانت الحرب العالمية الثانية نتيجة لتمثل هوية قومية معينة لتصورات جعلها تتصادم مع باقي الهويات الأخرى، وما أحدثه هذا التصور من ويلات على العالم، الشيء الذي دفع العقل الغربي لإعادة النظر في مفهوم الهوية لهذا يقوم بول ريكور على نقد فلسفي للذات كما ورثته الفلسفة الأوروبية من ديكرت ويؤسس هوية جديدة تتسم بالدينامية والانفتاح على أسس من الاختلاف تستند على نظريته في السرد. حيث تصبح الذات مع السرد تعيش إمكانات وجودية من خلال افتراضات المخيلة وتقوم بتعريفات مختلفة ومتناقضة ولكنها في النهاية تعود إلى ذاتها.

كلمات مفتاحية: الهوية؛ الاختلاف؛ الذات؛ السرد؛ الخيال.

Abstract:

The Second World War was the result of a certain national identity representing perceptions that made it collide with other identities, and the devastation this caused to the world, something that pushed the Western mind to reconsider the concept of identity for this Paul Ricoeur is based on a philosophical critique of the self as inherited by European philosophy from Descartes establishes a new dynamic and open identity on the basis of difference based on his narrative theory.

Where the self becomes with the narrative, living existential possibilities through the assumptions of the imagination and make different and contradictory definitions but in the end, it returns to itself.

Keywords: Identity; Difference; Narrative; Imagination; Self.

مقدمة:

لا شك أنّ مسألة الهوية من المسائل الفلسفية التي لا تزال تُطرح بحدّة على صعيد التفكير الفلسفي المعاصر. بل، وتأخذ حيزا واسعا من النقاش على أصعدة الثقافة والسياسة والحقوق. فالهوية ستبقى مدار اهتمام الانسان. بل وتفرض حضورها في كل منعطف تاريخي حاسم، فلا يتوقّف التفكير فيها، إلّا بعد أن يتخلّى الانسان عن التفكير في الإجابة عن أسئلته الوجودية: من هو ومن يكون. وتتعرّز هذه الأسئلة الحاحا، عندما يُظن أنّ هناك، تهديدات آتية من هوية أخرى منافسة أو مهدّدة.

وقد يبحث الانسان - في أحيان كثيرة-، عن الظهور بصورة المتمايز المختلف، بإظهار هُويته المختلفة. حتى يمارس نوع من اثبات الوجود، ضمن الهوية التي ينتمي اليها. إلّا أنّه في المقابل، يوجد تيار لا يأخذ مسألة الهوية بعين الاعتبار، يتصور الهوية بغير حدود ولا سمات ولا طبع يميّزها، فما هنالك إلّا هوية عالمية موحدة متحوّلة ومتغيرة. إذن نحن أمام تصورين متقابلين للهوية:

أما الأوّل فذلك الذي يسيّجها في أطر تكوينية تاريخية ويؤمّضها في تعريفات وتحديدات ترتفع بها إلى مستوى الهوية الجوهرية المتعالية، البعيدة كل البعد عن كل تغيير وتأثّر. في مقابل التصور الثاني الذي لا يؤمن بوجود أي خاصية مميزة للهوية، فكل ادّعاء لوجود تمايز في الهويات فهو محض توهم. فكل ما هنالك سوى هوية متحللة ومنفكّة من كل قيود وحدود. والسؤال الاشكالي الذي يطرح: كيف بإمكان ريكور أن ينقذ الذات من زمن تحلّل الهويات؟ وبعبارة أخرى: كيف تبقى الذات محافظة على طبعها المميز ضمن نظام العولمة الذي يُذيب كل الذوات في تصور واحد للهوية؟ والسؤال الذي يتداعى في المقابل: كيف بإمكان أن تنفتح الهوية -التي تدعي وهم النقاء والتميز والمثالية- على المتغير والمتحوّل والعالمي؟ فرضيتنا تقوم على أنّ ريكور يتجه نحو الجمع بين التصورين، ولا يضحى بأحدهما لإنقاذ الآخر وذلك بتوظيف الادب والخيال في حل اشكالية الهوية.

أولا: نقد مبدأ التعالي لأننا أفكر:

01 - تعطلّ المفهوم التاريخي لمعنى العرق المتفوق:

لقد تشكّل مفهوم الهوية، في الفكر الأوروبي، بمعناه القومي والإثني منذ عصر النهضة فقد بدأ يشهد هذا العصر ظهور مصطلحات ومفردات جديدة في عالم الثقافة لم تكن معروفة أو مستساغة في الثقافة المسيحية في القرون الوسطى. وتم تداول مفردات تشير

الى الهوية من قبيل: العرق الآري المتفوق، العرق السامي، الانسان الأبيض، الانسان الشرقي، الانسان المتوحش، الجدير بالذكر، أننا نجد جذور هذه المصطلحات في مرحلة مبكرة، من بداية التوسُّع الأوروبي. وجسدها عمليا كريستوف كولومبوس في تعامله مع الهنود الحمر على الأرض الجديدة عندما قال: "إنهم يصلحون عندما يكونون خدما جيدين ومجتهدين ... إنهم أهل للخضوع لحكمنا" (لكلرك، ج، 1990، 24)

تأسيس الهوية في الثقافة الغربية، أخذ بُعديه الأساسيين من: الانثروبولوجيا الإستعمارية. حيث، تم تغذية الإعتقاد الأوروبي بالتفوق العرقي على جميع الأعراق، فكلومبوس المجسّد للطموحات الاستعمارية الغربية، دشّن لحظة التعالي الديني والإثني، على مثال القول: "نأتي إليهم بصفتنا مُنتمين لعرق متفوّق، وخدمة لنظام الحكم ونحن ننتمي لديانة مقدّسة وباستطاعتنا من خلال الجهد الهادف والأعمال الصبورة من أجل عرق مازال في الحضيض، أن نقوم بعمل يخدم السلام" (لكلرك، ج، 1990، 24)

تزامن مع هذا التعالي الأنثروبولوجي، وجود فلسفة عقلانية جديدة تعبر عن الروح الجديدة للعصر، التي من أبرز ممثليها ديكارت حيث يؤيّد هذا التعالي بقوله: "وكنّت أبغي بعد أن أوجّه النظر إلى منفعة الفلسفة وأنّ أبين أنّه مادامت تتناول كل ما يستطيع الذهن الإنساني أن يعرفه فيلزمنا أن نعتقد أنّها وحدها تميزنا من الأقوام المتوحشين والهمجيين وأنّ حضارة الأمة وثقافتها إنّما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها" (ديكارت، رينيه، 2018، 204).

يؤمّس هذا القول، لتمايز معرفي جذري بين المعرفة التي تمتلكها الأمة المتحضّرة وبين المعرفة التي هي للأقوام المتوحشة، هكذا يتم التأسيس للتعالي التاريخي والتفاضلي بين الأمم من خلال شيوع التفلسف الصحيح .

ولكن في وقتنا الراهن، أصبح مفهوم الهوية الذي ظهر بدلالاته تلك، عبئا على أوروبا لأنّه استنفذ مفعوله وعمله التاريخي. فبعد الحرب العالمية الثانية أخذت الهويات الأوروبية بمعناها القومي مسارا آخر، من حيث التحلّل والتنوع والتصدع، فمن جهة وفدت إلى الجغرافيا الأوروبية أعدادا هائلة من المهاجرين والوافدين من بلدان وعرقيات مختلفة لتوظيفها في البناء الاقتصادي ما دفع إلى إعادة التفكير في جدوى التصورات القديمة لمفهوم الأمة لاحتواء المختلف والمتنوع، فذهبت إحدى الدول إلى النظر في مكانة

"يهود الإمبراطورية العثمانية السابقة ويهود الإمبراطورية الروسية السابقة ثم الآسيويين الصينيين والفييتناميين والمغاربة والأفارقة" (موران، إدغار، 2016، 85). ومن جهة ثانية: الشيء الذي أدى إلى إعادة مسألة الهوية والنظر في مضامينها القديمة هو، ظهور وسائل التواصل والإعلام ووسائل النقل الجديدة وأصبح العالم مدينة واحدة، فاختزل المكان والمسافة في ضغطة زر. وتغير بذلك مفهوم البعد والقرب والهوية والانتماء. وظهر ما يسمى بالهويات الجديدة على منصات الانترنت المتمثلة في مجموعات الأصدقاء والمتابعين، التي تشكل كل منها على جدى، هوية بالمعنى وبالمفهوم الذي تختاره مجموعات التواصل الاجتماعي لأنّ "البشرية تدخل في فضاء جديد هو الفضاء الإلكتروني الذي تتغير فيه العلاقات بالمكان والزمان، بالمدينة والمجتمع بالسلطة والسياسة ففضلا عن المعرفة والثقافة بصورة مجملة" (حرب، علي، 1997، 08)

02 - نقد فكرة مركزية الذات:

من أجل إعادة بناء الهوية الغربية، يشتغل ريكور على نقد فلسفي لتصور مركزية الذات الموروثة من ديكارت ومعناه، الابتداء من نقد مبدأ الكوجيتو من جهتين، فمن جهة أولى: تبيان وهم الأولوية التي يزعمها الوعي ومن جهة ثانية: إبراز تهاافت ادعاء الوضوح والشفافية "فإنّ هذا الإدراك المباشر يعد شعورا فقط وليس فكرة فإذا كانت الفكرة نورا ورؤية، فإنّه لا توجد لا رؤية للأنسا ولا نور للإدراك وأنّي لأحس فقط بأنّي مستيقظ" (ريكور، ب، 2005، 383)

ولكن الأنسا بالمفهوم الديكارتي سيبقى متموضعا في تعالي مجرد ما لم يُدرج ضمن تأملاته مهمة التفكّر في النصوص والعلامات كوساطة بينه وبين ذاته. فالوعي هو دائما وعي بشيء، وهذا الشيء لا يكون شيئا آخر غير العلامات، ف "ما دام الأنسا أفكر، لا يرى في مرآة أشيائه وأعماله فالتفكير إنّما يكون حدسي أعمى إذا لم يكن موسطا بما يسميه دلتاي التعابير التي تصبح فيها الحياة موضوعية (ريكور، ب، 2005، 49). فالوعي لا يدرك ذاته إلّا بوساطة العلامات والرموز التي تثبتّها الحياة كأثار وسواء كانت هذه الآثار نصوصا أو أعمالا وأي منجزات بشرية عبر التاريخ.

ثانيا إعادة بناء الذات:

01 - الهوية بين العينية والذاتية:

يقودنا الحديث إلى طرح سؤال: كيف يُعيد ريكور ترتيب عناصر الهوية وكيف يستفيد من المتخيل السردى؟ الجواب هو عند ريكور: أنّ الذات تنحل في النهاية الى نموذجين:

أ- نموذج الهوية العينية: وهي الهوية المتطابقة مع ذاتها، أي ما هو نفسه. ففي اللغات الأجنبية تكون "الهوية كعينية (في اللاتينية Idem وفي الانجليزية Sameness وفي الألمانية Gleichheit) (ريكور، ب، 2005، 253) ومن خصائص الهوية العينية عند ريكور:

- الديمومة في الزمان: فالشيء يبقى هو هو، فنقول عن الشيء أنه: هو عينه. لم يؤثر عليه مرور الزمان، كسبيكة معدن الذهب. ستبقى محافظة على خصائصها الجوهرية حتى ولو مر عليها الكثير من الوقت.

- التطابق العددي: فنقول عن عدد من الأشياء التي تركناها في هذا المكان هي عينها، لما أعدنا حسابها العددي من جديد.

- الاستمرارية غير المنطقية: فنقول عن بذرة شجرة البلوط هي عينها الشجيرة الصغيرة وهي عينها الشجرة التي اكتمل نموها. ويدخل في هذه الهوية العينية "الهوية البيولوجية التي تحكم بها المدونة الوراثية والتي تحدد علاماتها بأثار البصمات وما يُضاف إليها من السحنة والصوت والمشية مروراً بالعادات القارة أو كما يقال المستقرة إلى حد الإمارات العارضة التي يتعرف بها إلى فرد ما" (ريكور، ب، 2010، 146).

- الهوية الكيفية: فنقول عن شخصين أنهما يرتديان "البدلة نفسها أي أنهما يرتديان ثيابا متشابهة إلى درجة أنه يمكن تبديلهما من دون أن يكون لذلك أي تأثير" (ريكور، ب، 2010، 254).

نخلص إلى القول أنّ الهوية العينية أو الجوهرية تتعين وفق مبدأ عدم التغير في الزمان وتحافظ على مضمونها ومحتواها كما هو. أمّا كيف يتجلى نموذج الهوية العينية على مستوى الفرد والأمة، فنجد في الطبع. ولكن ما هو الطبع؟ يقول ريكور: "الطبع يشير إلى مجموع الاستعدادات المستديمة التي بفضلها نتعرف على الشخص... كل عادة تعلمتها واكتسبتها وأصبحت استعدادا مستديما تشكل سمة - طبع - أي إشارة مميزة يمكن بفضلها التعرف على شخص ما والتثبت من هويته على أنه الشخص عينه، فالطبع ليس شيئا آخر سوى مجموع هذه العلامات المميزة" (ريكور، ب، 2005، 261، 262). فالطبع

هو العلامات المميزة لي، التي تجعلني مختلفا عن غيري. إنّه ما هو خاصتي ولي. وينبّه ريكور إلى أنّ هناك تداخل بين الطبع والعادة فالعادة تصبح من خلال التكرار طبعا و" الترسيب هو الذي يمنح الطبع هذا النوع من الديمومة في الزمن" (ريكور، ب، 2005، 262).

وإذا كان الطبع والعادة يمنحان للذات ثباتا وديمومة في الزمان وكيونة غير متغيرة فإنّ هناك شكل آخر لأشكال الهوية العينية، متمثلة في التماهيات والتطابقات التي تقوم بها الذات، فتصبح هذه التماهيات الجديدة مركّبا جديدا يدخل في تركيب الذات. يقول ريكور: «تلحق بمفهوم الاستعداد، مجموع التماهيات المكتسبة التي يدخل بواسطتها شيء من الآخر في تكوين العينية. وبالفعل فإن هوية شخص ما أو جماعة معينة، مصنوعة في جزء كبير منها. من هذه التماهيات. في قيم أو مبادئ أو مثل عليا أو نماذج أو أبطال التي يجد الشخص نفسه فيها" (ريكور، ب، 2005، 262). ومعنى هذا، أنّ التعلم والتأثر بالشخصيات والأبطال والمبادئ الميثوقة تاريخيا، تدخل في تشكيل الذات من جديد، حيث تصبح هذه التماهيات ما يشكّل الأنّا. فالكثير من الشعوب والأفراد اكتسبوا عادات وتقاليده وسلوكيات من خلال الاحتكاك بالغير فأصبحت هذه التماهيات الجديدة ما يدخل في تكوين العينية، أي تصبح طبعا فيها .

يحمل ريكور على الهوية العينية مهام الحفاظ على خصوصية الأنّا واعطائها صبغة الديمومة في الزمان. سواء، من خلال الطبع أو من خلال المضامين الثقافية وهو ما يميز فرد عن فرد وأمة عن أمة أخرى.

ب- نموذج الهوية الذاتية: تتحدد الهوية الذاتية بعكس العينية الموصوفة بالثبات والسكون. ذلك، أنّ الهوية الذاتية تتصف ب: القدرة والفاعلية والحرية والمسؤولية الأخلاقية. وبعبارة أوضح، في الهوية العينية لا يظهر فيها أي عمل للذات الفاعلة والقادرة لأنها محكومة قبلا، بتأثير الطبع والعادات والتماهيات، فلا يمكن الحديث في هذه الذات عن المسؤولية والحرية والاختيار لأنها خاضعة لنوع من القوانين القارة التي تأتي من الطبع والعادة.

بينما، الهوية الذاتية كما يؤكد صاحب كتاب الاستعارة الحيّة " بدت لي مميزة بصورة أفضل لذات قادرة على أنّ تعيّن ذاتها بوصفها صاحبة أقوالها وأفعالها ذات غير متجوهره وغير ثابتة ولكنها مسؤولة عما يصدر عنها من قول أو فعل" (ريكور، ب، 2006،

ص 105) إذن لدينا عناصر مهمة في تصور ريكور للهوية الذاتية: القدرة والفاعلية والمسؤولية الأخلاقية

مفهوم الهوية الذاتية جاء من دون شك، ليرد على بعض التيارات الفكرية التي تبرئ الذات من الجريمة والخطيئة ولا تحمّلها المسؤولية الأخلاقية في تحمّل نتائج أفعالها وأقوالها، وتردّها بحسب زعمها، الى قوانين نفسية واجتماعية قاهرة. في المقابل، يسعى ريكور (2003، 69) أن يؤسّس لهوية تكون أساسا، لصياغة المفهوم القانوني للمسؤولية ولعل إنقاذ الهوية الأوروبية من العدمية الأخلاقية يكون من خلال تصور نوعين من ديمومة الهوية في الزمان: هوية تحافظ على ذاتها من خلال الطبع والعادة، وهوية تحافظ على ذاتها من خلال الوفاء بالعهد أو لنقل أن هناك:

أ. ديمومة الهوية في الزمان من خلال الطبع: حيث يتم التعرف على هذا الشخص أو على تلك الأمة من خلال العلامات المجسّدة في الطبع والعادات المميزة لهما. وهذه الديمومة نتاج للطبع ولا تعود للفاعلية الذاتية. فنقول عن هذا الشخص أنه مازال محافظا على الكثير من طباعه: في كثرة كلامه أو قلّته، أو في طريقة حوارهِ وانفعاله بكيفية ما، وكونه لم يتغير بالرغم من مرور السنين. وتستمر الأمة من الماضي إلى الحاضر محافظة على عاداتها بوصفها قد تطبعت عليها عبر مرور الاجيال.

ب: ديمومة الهوية في الزمان من خلال الوفاء بالعهد للكلمة المقطوعة: وهو المتعلق بالهوية الذاتية التي تخضع لمتغيرات وظروف وصدف ومع ذلك تبقى محافظة على ذاتها من خلال الوعد بالكلمة المقطوعة. فهناك "نموذج آخر للديمومة في الزمان غير الطبع إنّه نموذج الوفاء بالعهد في الأمانة للكلمة المقطوعة" (ريكور، ب، 2005، 265) أو «الإبقاء على الذات في الوعد" (ريكور، ب، 2005، 267)

إنّ استمرار الطبع والعادة في الشخصية في الزمن الحاضر، لا يمثّل انجازا حقيقيا للهوية، لأنّه مجرد استمرار لحتميات آلية في الذات عبر الزمان بالضرورة، ولكن التزام الذات بعهودها وبمواعيدها ولكلماتها التي قطعها لغيرها، هو الذي يحقق المعنى الاخلاقي بالمفهوم الانساني. والقول بالهوية الذاتية معناه أن تحافظ الذات عن التزاماتها الذاتية والاجتماعية والقانونية والاخلاقية أمام الآخر. حتى يتم التأسيس للثقة على أساس الالتزام بالعهد كمقدمة أخلاقية ضرورية لتأسيس العلاقات الاجتماعية والسياسية والقانونية لأنّ "المحافظة على الذات هي أن يتصرف هذا المرء، بطريقة تجعل الآخر

يستطيع أن يعتمد علي، فإني أصبح محاسبا لأعمالي أمام آخر غيري "(ريكور، ب، 2005، 234)

02. السرد وتجلي ابعاد الهوية:

الملاحظ أن ريكور يجد في السرد التطبيقات الأدبية لنظريته في الهوية، محاولا إيجاد حل لأزمة الكوجيتو المتعالي ولأزمة الهوية التائهة. فكيف يطبق ريكور تصوره للهوية على الأدب؟ تتضمن القصص الروائية حسب ريكور بعدي الهوية الأساسيين: العينية والذاتية فالرواية التي تحافظ على الهوية العينية هي التي يظهر فيها البطل بهوية واحدة دائمة ومستمرة، لا تغيرها الظروف والوقائع، حيث يحافظ البطل على طبعه وشخصيته عبر أجزاء الرواية، وفي المقابل نجد بعض القصص تتضمن أيضا بعد الهوية الذاتية، حيث يخضع البطل إلى قالب الحبك المؤلف من كلية الظروف والمتغيرات والصراعات وتقلبات الحظ، لتخرج هذه الذات في النهاية غير ما كانت عليه، فكل هذا المتنوع من المتغير سيدخل في تجارب البطل ولكن مع ذلك ستبقى الهوية/الشخصية محافظة على ذاتها. وبعبارة أخرى البطل هو: بين العينية (الثبات والطبع) وبين الذاتية (الحرية والمسؤولية) في مسيرة كلية الظروف المتغيرة مع إبقاء الذات وفيّة لمهدا يقول ريكور مؤكدا "إنّ الأنية لن تختفي كليا إلا إذا كانت الشخصية متجذّلة من كل إشكالية في الهوية الأخلاقية، بمعنى القدرة على أن يكون المرء محسوباً على أفعاله، تجد الإنية في هذا الطور بالقدرة على الوعد" (ريكور، ب، 2010، 146). بالحفاظ على الوعد تبقى الذات ملتزمة بعهودها والتزاماتها على الرغم من الظروف التي اجتازتها وهذا الرأي في التزام الذات بوعداها. هو رد على التيارات العدمية، التي تتملص من كل التزام أخلاقي وقانوني.

وإذا كانت المخيلة في الأدب تشتغل على صياغة حكايات من خلال محاكاة الأفعال الواقعية، مجرّبة، ممكنات الفعل البشري سرديا، لتعيد وصفه على نحو خيالي خلاق لأنّ "الفعل السردى ... يطبق شبكة تخيل محكم، لمختلفات الفعل البشري وبينما يمكن أن يكون منطق ممكنات سردية ومختلفات الفعل التجريبية، يحشر التخيّل السردى استعمال رسمه التخطيطي للسلك البشري" (ريكور، ب، 2001، 172).

وبعد مصطلح الهوية السردية مفهوما مركزيا عند ريكور ويمكن أن يوازيه في المعنى اللغوي مفهوم الذات المحكية، ويعني أنّ المخيلة في فعل القص تنقل الأنا الذي كان قبل عملية الحبك القصصي في وضع متعالي وثابت إلى وضع متحول ومتغير ومتجسّد فالذات في السرد تخضع لمسيرة التخيّل لسلسلة من الظروف والمتغيرات والتناقضات وتكون قابلة لاستيعاب الآخر. بغير، أن تفقد معه ما يجعلها هي، ودون أن تخسر خصوصيتها. وهذا معناه إنزال الكوجيتو الديكارتي المتعالي إلى الحياة عن طريق القصص والروايات المحكية .

بل أصبح هاهنا: إبداعا للذات على صعيد المخيلة المنتجة والمبدعة. ولكن ماذا يعني هذا ما الذي يمكن أن نقرأه ما بين السطور؟ الهوية هي إبداع متواصل من طرف الإنسان ولا يمكن حصرها في عادة أو في مبادئ ثابتة لا تتغير. تصبح الهوية متجددة ومستمرة وفاعلة، وهي مع ذلك تبقى محافظة على ذاتها بالوعد للكلمة المقطوعة، وفيه للعهد، ولا بأس أن تجرب الذات على نحو متخيل جميع ممكناتها في الفعل وفي القول، بل وتجرب انزياحاتها المختلفة وتواجدها المختلفة.

ولكن عمل المخيلة يجب أن يُضبط ب: المسؤولية الأخلاقية، يقول ريكور "سأוכל فيما يلي إلى الوعد وزر حمل مصير الإنية، تحديا للظروف التي تهدد بكسر هوية العين أما الشعاع الفخور سأوفي بعهدي je maintiendrai أرفع إلى اللغة الهيئة المخاطرة للإنية بوصفها إخلاصا للذات خارج أي ضمان من العينية" (ريكور، ب، 2010، 147) فالذات لن تفقد خصوصيتها بمجرد أنها خاضت تجارب مختلفة بل ستكون وفيه لعهدا انطلاقا من وعيها الأخلاقي وليس من منطلق طبعها الأخلاقي. وهذا أمر في غاية الأهمية: فهناك فرق بين التزام سلوكي من منطلق أخلاقي وبين التزام بتأثير الطبع.

ثالثا: القراءة وإغناء الهوية:

يقودنا الحديث إلى معرفة الدور الذي تقوم به القراءة في تشكيل الهوية عند ريكور وكيف تساهم في تجاوز أزمة الكوجيتو، بداية نبتدئ بعبارته التي هي في غاية الأهمية من كتابه سيرة الاعتراف "من مهام قارئ الحكبات والمرويات أن يرياض على معاودة تشكيل انتظاراته الخاصة على قدر نماذج التشكيل التي توفرها له الحكبات التي ولدتها المخيلة على صعيد التوهم" (ريكور، ب، 2010، 144). يتعلق الأمر بأن السرد بتصويره للتجربة الإنسانية، يساهم في تغيير هوية القارئ فالتجربة التي تم عرضها في الأدب، سيكون لها تأثير على القارئ من حيث هويته العينية الممثلة في طبعه الثقافي والإيديولوجي والمعرفي. على عكس هذا، الهوية التي لا تقرأ، هوية متكلسة ومتوقعة على نفسها تنظر إلى العالم وفق منظورها، وهي بهذا تحتكر فهم العالم، وتنكر أي معرفة أخرى وبعبارة أخرى، الهوية التي لا تقرأ تنظر إلى العالم من منظور طبعها العيني القار والثابت. ولكن بفعل القراءة يتم توسيع من مفهوم الذات من خلال الاطلاع على تجارب مختلفة "التي يدخل بواسطتها شيء من الآخر في تكوين العينية" (ريكور، ب، 2005، 262) يعني أن القراءة أداة لمعرفة تجارب الآخرين وتسمح بالاطلاع على كيفيات عيش مختلفة، الشيء الذي يؤثر في العادة والطبع المستقر لدى القارئ. وبعبارة أوضح: كلما ابتعدت الذات عن قراءة تجارب ورؤى الآخر كلما تمسكت بهويتها الثابتة وأخذت طبعها متكلسا وانغلقت على نفسها وتصدت لكل معرفة لا تصدر عنها، ذلك لأنها تعتقد أن فهمها هو الفهم الوحيد والممكن. إذ أن

القراءة هي فعل تعرّف قبل كل شيء، تعرّف على تجربة وجودية معاشه من طرف الآخر. وبهذا التعرّف تُكشف لدى القارئ إمكانات مجرّبة معيشة. من هنا يغتني القارئ بتجربة النص، تصبح عندئذ الكينونة أوسع من ذي قبل لأنها احتوت تجارب الكينونة الأخرى.

قراءة النص هي أيضا فعل حوار مع الآخر- الغائب جسدا الحاضر دلاليا- كما هي تشوّق لمعرفة طرائق وجود الكينونة الأخرى. فعندما تمارس الذات حوارا مع النص، يكون هذا الآخر المقيم فيه، وسيطا بين الذات القارئة وبين نفسها، إذ تفهم الذات نفسها أكثر من ذي قبل بأن تكتشف مناطق جديدة، كانت مغيّبة أو كانت منسية لدرجة أن يُصبح النص هو مرآة الذات ويمكن معها القول، أن الآخر كان مساهما في اكتشاف الذات وبناءها، "فإنه بإمكان القارئ أن يعلن أنه يتعرف إلى نفسه في هذه الشخصية مأخوذة في هذه الحبكة" (ريكور، ب، 2010، 144).

الذات التي لا تقرأ، تبقى رهينة لأطر ولفظيات بعينها لأنها غير مطلّعة على مختلف الممارسات الوجودية التي مارسها الإنسان عبر تاريخها، بينما اطلاع الذات على هذه التجارب، إضاءة للمخيّلة، بمختلف التجارب المتنوعة، حيث يتكوّن لديها نموذج دينامي على مستوى الذهن يمكن أن يتخيّل مختلف الألعاب الممكنة للفعل الإنساني التي ستوظفها فيما بعد على صعيد الحياة الواقعية. بهذا تصبح القراءة قوة، باعتبارها أداة إطلاع على مختلف التجارب التاريخية التي تم إنجازها. وبهذا المعنى سيكون لها تأثير على تقليل نسبة الخطأ في الفعل الإنساني. فالأدب مثلا "يتبدّى في نهاية المطاف مختبرا شاسعا للتجارب الفكرية حيث تخضع هذه الذات إلى تغييرات متخيّلة لا تحصى" (ريكور، ب، 2005، 324 ولأن النصوص تحتوي على أبعاد جمالية في إرادة القول والفعل، فإنها تثبت في مخيلة القارئ لتكون كإمكانات وجود في المستقبل، ذلك أن القراءة تكسر النماذج المترسبة للذات العينية كالطبع والعادة ف"فعل القراءة هو الذي يصحب تفاعل الابتداع والترسب في النماذج التي تخطط الحبكة" (ريكور، ب، 2006، ص 131).

من خلال الارتحال بواسطة القراءة، تُكسر النماذج القديمة، من قوانين وقواعد وطباع وعادات وتخضع بالتالي، إلى التغيير. ومن ثمة، التحول إلى نماذج أخرى ويحدث نوع من الانزياح عن النموذج القديم إلى نموذج آخر جديد، كهوية متجددة فالقراءة هي إِبصار لرحابة الوجود من بعد ما كان مقتصر على عالم الذات الضيق. واستلهاً وتعرّف على تجربة الوجود هناك حيث يعرض على الآخر تجربته في نص. كما هي تعلّم خلاق من كفايات الوجود التي تمت في التاريخ كما كتبت في نص.

خاتمة :

لا يمكن أن يكون الإنسان بغير هوية، تميزه عن غيره، وأن يكون، معناه أنه هو ذاته وليس غيره، وهذا ما يفرق الذات الإنسانية فيما بينها، كما أن التطابق بين الذات الإنسانية هو في حكم المستحيل، فقد نجد هناك تشابه بين هذا الفرد أو ذاك أو بين هذه الأمة أو تلك. ولكن لا يمكن القول أن هناك تطابق بينهما. لدرجة، أن الواحد منهما ينوب عن الآخر. فالتفرد هو ما يميز الكينونة ومن خلاله تتخيل إمكاناتها الوجودية، المميّزة والفريدة، وتمارسها على صعيد الواقع. وهذا لا يعني، أن الذات تعيش منغلقة حبيسة تفرد لها بل من خلال التواصلية الاجتماعية والبيئية، تخلق الهوية فضاء مشتركاً بينها وبين الآخرين ما يسمح بانتقال تجارب الآخرين إليها وتغنييها، فالعقل لا يتعلم من ذاته بل يستعين بما توصل إليه الآخرين ليطور من قدراته الخاصة. فالأنا لا يحقق تفكيره إلا بتجارب الآخرين، ولا يمكن أن يستمر في تعقل الحياة في جميع زواياها إلا إذا اطلع على قدر كبير من تجارب الإنسانية من خلال أدوات السرد والقراءة ويأتي تفرد الذات في النهاية ليعطي لتجربة فلسفية أو أدبية أو نهضوية خصوصيتها الخاصة ويضعها كحلقة من حلقات الفكر الإنساني في كليته.

إن التجربة الحضارية التي فجرها اليونان في على صعيد العلم والفلسفة هي تجربة فريدة من نوعها، وقد استعادها الرومان ولكن على نحو سياسي وإمبراطوري مختلف، أما التجربة النهضوية في الحضارة العربية فهي النهضة التي اقترنت بالنص القرآني وهي تجربة فريدة ومميّزة عن التجربة الأوروبية الحديثة التي اقترنت في أساسها بمركزية العلم التجريبي. وهكذا فإن، كل تجربة نهضوية هي ذات فريدة معينة تتصل بروح الأمة وبفرادتها، فلا يمكن أن تنجح نهضة على أساس نسخ تجربة حضارية سابقة أو متزامنة. ذلك. أن الهوية هي التي تفتق نهوض حضاري على شروطها ووفق فرادتها، ومن رحمها. ولكن لا تحدث هذه النهضة دون الاطلاع على ما هو مختلف إما بقصد التعلم أو بقصد معرفة ما هو غير مناسب. يتعلّق الأمر: أن الهوية هي جدل قائم بين التطابق والاختلاف.

- المصادر والمراجع

- ديكارت، رينيه، (2018)، كتاب مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان امين، ط1، عمان الاردن: دار خطاب للنشر والتوزيع.
- لكسرك، جيرار، (1990)، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة، ط2، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- ريكور، بول، (2005)، الذات عنها كآخر، ترجمة وتعليق وتقديم: جورج زيناتي، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
- ريكور، بول، (2010)، سيرة الاعتراف، ترجمة: فتحي انقز، ط1، تونس، المركز الوطني للترجمة.
- ريكور، بول، (2006)، بعد طول تأمل، ترجمة: فؤاد مليت، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- ريكور، بول، (2005)، صراع التأويلات، ترجمة: منذر عياشي، مراجعة: جورج زيناتي، ط1، طرابلس، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- ريكور، بول، (2003)، العادل، الجزء الاول، تعريب: عبد العزيز العيادي ومنير الكشو، تنسيق: فتحي التريكي، ط1، قرطاج، تونس، بيت الحكمة.
- ريكور، بول، (2001)، من النص الى الفعل، ترجمة: محمد بردة، حسان بورقية، ط1، القاهرة، عين للدراسات والنشر..
- ريكور، بول، (2006)، الزمان والسرد، الحكمة والسرد التاريخي، الجزء الأول، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ط1، طرابلس، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- علي حرب، علي، (1997)، الفكر والحدث حوارات ومحاور، ط1، بيروت، دار الكنوز الأدبية.
- موران، إدغار، (2016) (تعليم الحياة، بيان لتغيير التربية، ترجمة: الطاهر بن يحيى، ط1، بيروت، منشورات ضفاف